الفصل الأول

(تمهيدى)

مقومات الحقائق العلمية فى الفكر الإسلامي

المبحث الأول : الإسلام والنهوض بالعلم

المبحث الثاني: الإسلام واحترام العقل

المبحث الثالث : تعظيم العلم وإكبار العلماء مبدأ أصيل فى الإسلام

obeikandl.com

obeikandl.com

المبحث الأول

الإسلام والنهوض بالعلم

obeikandl.com

obeikandl.com

المبحث الأول

الإسلام والنهوض[١] بالعلم

من مزايا أصول الإسلام – قرآنا، وسنة، وتراثاً[٢]، نتج عن الأخذ منهما، أنها فى مجموعها تقف من العقل والعلم، موقف التعظيم والإكبار، تعظيم العقل بكل أنواعه، وازعاً[٣]، أو مدركاً[٤]، أو متأملاً[٥]، وتعظيم العلم بكل فروعه دينياً وشرعياً أو كونياً، وإكبار العلماء، تقديرياً لجهودهم باعتبارهم أولى الألباب، الذين بنبوغهم تتقدم الأمم . ذلك أن الفكر الإسلامي على الجملة، يدرك أن صحة الأمم، وعافيتها، ونهوضها بين العالمين، إنما يقاس بمدى احترامها للعلم، وتنميتها للعقل، وتقديرها للعلماء، واحتواء النابهين منهم، لتهيئ لنفسها مقعداً فى قطار التقدم، ولذلك جاءت آيات القرآن الكريم وأخبار السنة الشريفة لتؤكد هذا التوجه.

((١) النهوض:الارتفاع والحركة، من نهض فلان عن مكانه، ارتفع عنه ويقال : نهضت نهوضا تحركت، وعليه فيكون النهوض بالعلم، أى الارتفاع به والتحرك السريع فيه. المصباح المنير فى اللغة لأحمد بن محمد المقرى الفيومى المتوفى سنة٧٧٠ هـ طبعة المكتبة العلمية _ بيروت صفحه ٦٢٨ .

(٢) يقصد بالتراث الناتج عن الأخذ من القرآن والسنة، ما دون من فكر وعلم عظماء الإسلام الذين نبغوا فى العلم بشتى فروعه وفنونه وكانوا بفضل المثابرة وروح الجد وتقوى الله ﷻ، موسوعين، فضلا عن التخصص الدقيق . فتوغلوا فى المعارف الكونية وبرعوا فى العلوم الطبيعية كالطب، والفلسفة، والرياضيات، والفلك، وعلم النبات والحيوان.منهم الرازى، والشريف الإدريسي، والحراني، وابن أسلم وداود الأنطاكى، والبوزجانى، والبيرونى والخوارزمى، وجابر بن حيان، وابن رشد، وثابت بن قرة وابن الهيثم وغيرهم كثيرممن أسهموا فى الحضارة الإسلامية . ملامح من حضارتنا العلمية وأعلامها المسلمين الدكتور كارم غنيم، صفحة ٨٧ وما بعدها، الزهراء للإعلام العربى.

(٣) العقل الوازع : الذى ينبه صاحبه إلى منكر ويحترس منه، ويستحسن الحق ويطلبه ؟، ويستقبح القبيح وينكره . من وزعته عن الأمر منعته عنه، وحسبته . المصباح المنير، صفحة ٦٥٧ .

(٤) العقل المدرك الذى به يدرك الحكم بدليله. أى يلحق الحكم بالدليل، يقال مدارك الشرع مواضع طلب الأحكام. المصباح المنير، ص ١٩٢ .

(٥) العقل المتأمل، ويختص بإعمال ملكة الفكر والتأمل فيما يدركه من أشياء بعد تصورها وفهمها وتقليبها على كل الوجوه للتوصل إلى النتيجة الملائمة. من تأملت الشئ، إذا تدبرته، وذلك بإعادة النظر فيه مرة بعد أخرى حتى يعرف. المصباح المنير، ص٢٣ .

ففى القرآن قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا ﴾[١] . ذلك أنهم أكثر الناس معرفة بأسرار الكون وإعجاز الخالق . وقال : ﴿ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾[٢]

أي ما يفقه ويعي أن كل القرآن من عند الله إلا ذووا العقل السليم الخالص.

وفى السنة : الحق الرسول – ﷺ – رتبة العلماء برتبة الأنبياء، فى كشف حكم الله ﷻ، فقال : " العلماء ورثة الأنبياء " أي أنهم خلفاء لهم فى إظهار الشرع وإبلاغه للناس لأن الأنبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما ولكن ورثوا العلم. وأضاف – ﷺ – فى حديث آخر :"من يرد الله به خيرا يفقهه فى الدين ويلهمه رشده"[٣]

ومن هذا المنطلق كان يجب على المسلمين على مر الزمان ان يدركوا أن أصول دينهم تدعوهم إلى النهوض بالعلم والابتكار. لأن القرآن الكريم، قد نبههم بكل وضوح، وجلاء، إلى إمعان النظر والتأمل، والغوص فى البحث والتقصى للاستفادة بعطاءات الله فى الكون. أرضا وسماء وان ذلك أصل مقرر ديناً وشرعاً أخذاً[٤] من قولَه تعالى : (**سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق**)[٥]"

لكن العجيب والملفت للنظر أن من تنبهوا لآيات الله فى الآفاق فى

---

(١) سورة فاطر أية رقم ٢٨ .

(٢) سورة آل عمران أية رقم ٧

(٣) الحديثين فى سنن الترمذى لمحمد بن عيسى بن سورة الترمذى – المتوفى سنه ٢٧٩هـ الطبعة الأولى سنه ١٩٦٦م، طبعة ١٣٨٥ هـ، حمص، الجزء ٥ صفحة ٢٨-٤٩.

(٤) الآفاق جمع أفق، والأفق الناحية من الأرض والسماء. المصباح المنير صفحة ١٦ .

(٥) سورة فصلت، الآية رقم ٥٣.

العصر الحديث، وبذلوا الجهد والمال، وأقاموا القواعد العلمية، للاستفادة من مسخرات الله فى الكون هم الأمم غير المسلمة، بل والمدهش، أنهم استعانوا للوصول إلى هذه الدرجة من التقدم بالنبهاء من علماء المسلمين فآووهم ومكنوهم من البحث والتجارب المعملي، فتفوقوا بهم فى العلم، وركبوا بجهدهم الفضاء، وبلغوا بعلمهم أقطار[١] السمات والأرض، بعد أن أذن الله لهم تقديرا لجهدهم واحترامًا لعلمهم، وفقا لما قرره، القرآن الكريم فى قولة تعالى: ﴿ يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ إِنِ ٱسۡتَطَعۡتُمۡ أَن تَنفُذُواْ مِنۡ أَقۡطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ فَٱنفُذُواْۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلۡطَٰنٖ ﴾[٢] فالخطاب نزل على وجه العموم.

روى القرطبي عن ابن عباس رضى الله عنه فى معنى الآية : قال "إن استطعتم أن تعلموا ما فى السموت والأرض، لن تعلموه إلا بسلطان، آي بينه من الله تعالى[٣] وكأن خير الأمة رضى الله عنه قد سبق عصره، ووجه الدلالة فى الآية لتعبر عن واقع العصر، وتطور الزمن . ففسر سلطان الله ﷻ فى الآية بأنه سبحانه يلقن الحجة العلمية لمن اختارهم من ذوى الألباب ليأخذهم إلى مدارج العلم، للوصول إلى ما تتناهى إليه قدراتهم فى البحث والابتكار، لتحقيق أقصى قدر من التقنية[٤] الحديثة، لخير الإنسانية، سواء فى المجال الصناعى أو المجال الإنسانى . وللأسف يغفل

---

(١) الأقطار جمع قطر_ بالضم- والقطر الجانب والناحية، والمراد بلغوا جوانب السموات والأرض بسلطات الله، المفرادات فى غريب القرآن، صفحة ٤٠٧، المصباح المنير، صفحة ٥٠٨ .

(٢) سورة الرحمن، الآية رقم ٢٣.

(٣) تفسير الجامع لأحكام القرآن عبد الله محمد بن أحمد الأنصارى القرطبى ج٩، صفحه ٦٥٧ دار الغد العربى.

(٤) التقنية، مصطلح يطلق على الاستخدامات لأدوات العصر، من حيث الدقة فى الصنع والسرعة فى التطبيق، واستفوق فى النتائج ن وأصل الكلمة عربيا من الفعل قنى بمعنى جمع، يقال : قنوت الشئ أقنوه، قنوا وقنوة، جمعته، وقيل أقنى تأتى بمعنى، أعطى، ومنه قولّه تعالى: "وأنه هو أغنى وأقنى" (سورة النجم:أية رقم ٤٨) . أى أعطى ما فيه الغنى، وأعطى ما فيه القنية. المصباح المنير، صفحة ٥١٨ وعلى كلا المعنيين فهى تدل على المراد، من حيث تجميع وتكوين دقائق الصناعة لابتكار آلة حديثة تعطى نفعا واستخداما متطور للناس.

المسلمون عن هذا العطاء الإلهى فى القرآن الكريم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه، ولا من خلفه، رغم أن الله ﷻ فرض عليهم التدبر فى آياته الكونية للنهوض بالحقيقة العلمية للانطلاق من خلالها إلى آفاق الكون، أخذ من قولَه تعالى : " كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته " وقولَه سبحانه : ﴿ قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾[١] وقولَه ﷻ:﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾[٢] أى هل يستخدمون عقولهم ويتفهمون آيات القرآن الكريم أم أن على قلوبهم أقفال[٣] أقفلها الله ﷻ لنكوصهم عن التدبر، وإعمال العقل فهم لا يعقلون.

وفى هذا إشارة إلى أن الترفى فى تدبر آيات الله، وتفهم أبعادها للتوصل إلى أسرار إعجاز الخالق سبحانه فى الكون والإنسان، إنما هو بتوفيق الله تعالى: ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴾[٤].

فكان على المسلمين احتراما لهذه الخطابات القرآنية، إعمال النظر والتأمل فى آليات الكون، للترقي إلى مدارك[٥] العلم، وأن يسابقوا الغير للأخذ بأسباب الحقائق العلمية وتجلية أسرار الله فى الكون أمتهم أمة موجهة – بالكسر – لا موجهة.ينقل الغير عنها، بمثل ما تنقل هي عن الغير . لتتفاعل ومعطيات الله ﷻ في قرانه العظيم . هذا الكتاب الذى نزل محفوظا، ليرفع من شأنهم إذا اتخذوا من آياته مصدرا للإلهام ورمزا للتقدم والابتكار[٦] استنباطا من قولَه تعالى: ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴾[٧] وتأسيسا

---

(١) سورة يونس : الآية رقم ١٠١ .

(٢) سورة محمد : الآية رقم ٢٤ .

(٣) الأقفال، جمع قفل – بالضم – وهو أداة الغلق.

(٤) سورة طه : الآية رقم ١١٤ .

(٥) المدارك جمع مدرك وهي مواضع طلب الشئ، من أدركته، إذا طلبته بلحقته. والإدراك بلوغ موضع الحكم، بعد تفكير وتأمل، ويقال : مدارك أى مواضع طلب الأحكام، المصباح المنير، صفحة ١٩٢ .

(٦) الابتكار السبق بشئ لم يسبق فيه. من بكر إلى الشئ أسرع إليه .المصباح المنير، صفحه ٥٨، ٥٩ .

(٧) سورة طه : الآية رقم ١١٤ .

على ما أخبر به سبحانه فى قولـه: ﴿ لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾[١].

ولأن الابتكار إنما يتولد عن التأمل وتقليب الأفكار على كل الوجوه للتوصل إلى النتائج المستهدفة مما يعرف (بالتجارب المعملية) فإن التوصل إليها إنما يتوقف على إعمال العقل. والغوص فى العلوم، والمعارف بجميع فروعها الطبيعية والإنسانية، بآليات تناسب العصر، وتواكب التطور العلمي المذهل .

وهو ما اعتنى به الإسلام اعتناءً شديداً لتأخذ أمة الإسلام مكانها اللائق بين الأمم انطلاقا من قولـه تعالى: ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴾[٢] وقولـه ﷻ: ﴿ قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾[٣] فهذه دعوة للانطلاق نحو التأمل والنظر فى المثليات الكونية، والإنسانية لإجراء التجارب والبحوث المعملية والتى تؤدى فى النهاية إلى النهوض بالعلم والوصول إلى التقنيات الحديثة لأعمار الأرض وتحقيق النفع للإنسان فى العلوم الكونية والشرائح الإنسانية على وجه العموم ولذلك قال ﷺ : " الكلمة الحكمة ضالة المؤمن حيثما وجدها فهو أحق بها"[٤]

---

(١) سورة الأنبياء : الآية رقم ١٠ .
(٢) سورة العنكبوت أية رقم ٤٣ .
(٣) سورة يونس : الآية رقم ١٠١ .
(٤) سنن ابن ماجة الجزء٢ صفحة ١٣٩٥ للحافظ أبى عبد الله محمد زيد القزوينى – المكتبة العلمية – بيروت .

obeikandl.com

المبحث الثاني

الإسلام واحترام العقل

obeikandl.com

obeikandl.com

المبحث الثاني

الإسلام واحترام العقل[١]

العقل فى ضوء القرآن الكريم، هو مناط التفكير، والتأمل، وهو الغريزة التى يتهيأ بها الإنسان إلى فهم الخطاب، وإدراك الأشياء، وبه يبلغ الإنسان حد الالتزام الشرعي، وتحمل المسئولية لقوله – ﷺ – "رفع القلم عن ثلاثة: الصبى حتى يبلغ، والمجنون حتى يعقل، والنائم حتى يستيقظ"[٢] ورفع القلم، أى رفع الإثم والمؤاخذة، لانعدام العقل. وقد حدد الإمام الغزالى ضابط العقل فى أربعة معان على وجه الاشتراك .

المعنى الأول: هو الوصف الذى به يفارق الإنسان البهائم . أى أنه بالنسبة للإنسان أداة التفكير والتدبر، من عقلت الشئ تدبرته[٣]، وهو بهذا الوصف غريزة يدرك بها الإنسان مناهج العلوم النظرية المعصبة بحيث يرتب النكرة فى الذهن ويتنبه من كل الوجوه عن طريق النظر فى الأدلة، والأسباب ليتوصل بها إلى المطلوب إثباته شرعا، أو وضعا، سواء توقف عند الظن، أو تعداه إلى العلم. وهو ما يعرف بتوظيف الأدلة، والنصوص للدلالة على الحكم .

---

(١) العقل مصدر عقل . وله عدة معان فى اللغة، فيقال : للعقل . القوة المهيئة لقبول العلم كما يقال : للعلم الذي يستفيده الإنسان بتلك القوة عقل. وهو بهذا المعنى ممدوح، وأشار إليه الرسول ﷺ – بقوله : " ما كسب أحد شيئا أفضل من عقل يهديه إلى هدى، أو يرده عن ردي،وهو المعنى بقوله تعالى " وما يعقلها إلا العالمون " (سورة العنكبوت آية رقم ٤٣). ولذلك نفى بعض مواضع ذم الكفار فى القرآن الكريم إلى أن ذلك لعدم العقل فيهم . كما فى قوله تعالى : "ومثل الذين كفروا كمثل الذى ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء صم بكم عمى فهم لا يعقلون " سورة البقرة آية رقم ١٧١) ويطلق العقل على الإمساك والاستمساك، كعقل البعير بالعقال، كما يطلق على الكف من عقل لسانه كفه عن الكلام . المفردات فى غريب القرآن، صفحة ٣٤٢، المصباح المنير، صفحة ٤٣٣ .

(٢) سنن ابن ماجة جزء ١، صفحة ٦٥٨ .

(٣) إحياء علوم الدين للإمام الغزالى المتوفى ٥٠٥هـ الجزء ١ صفحة ١٠٣، طبعة دار الغد العربي.

وهذا المفهوم للعقل نبه إليه القرآن الكريم فى أكثر من آية ليؤكد احترام الإسلام لترتيب الأفكار والتأمل فيها للوصول إلى النتائج الصائبة.

قال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِيٓ أَنفُسِهِم ۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ﴾[1] أي لم ينظروا فى أنفسهم ويتأملوا فى إتقان خلق السموات والأرض فيعلمون أن ذلك لا يكون إلا بحكمة حكيم .

قال القرطبي : إنما أمروا أن يستعملوا التفكر فى خلق السموات والأرض، وأنفسهم حتى يعلموا أن الله لم يخلق السموات والأرض وغيرهما إلا بالحق، أي بالحكمة والعدل، وفى هذا تنبيه على توحيد الله وتعظيم قدرته[2] وقال ﷻ : ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾[3] فأشارت الآية إلى أن أقدر الناس على فهم آيات الله الكونية، هم ذووا العقل المتوقد الذي يكشف عطاء الله فى الكون أرضا وسماء.

المعنى الثاني: العقل بمعنى للعلم الضروري كالعلم بجواز الجائزات، واستحالة المستحيلات، فمن الأول أن الاثنين أكثر من الواحد، ومن الثاني أن الشخص الواحد لا يكون فى مكانين فى وقت واحد، وتسمية هذا العلم الضروري بالعقل ظاهر، لأنه موجود لدى كل مميز .

المعنى الثالث: العقل بمعنى معرفة عواقب الأمور، كمن يقمع الشهوة الداعية إلى اللذة العاجلة، ويقهرها بقوة المعرفة للعاقبة . فمن فعل ذلك يسمى عاقلا . لأنة نظر فى العواقب فأحجم، وهو مما

---

(١) سورة الروم : آية رقم ٨ .

(٢) الجامع لأحكام القرآن لأبى عبد الله محمد ابن أحمد الأنصاري القرطبى – طبعة دار ابن حذور – ١٤١٧ هـ ١٩٩٦، الجزء ٧، صفحة ٥٢٦٤ .

(٣) سورة الروم أية رقم ٢٤

يتميز به الإنسان عن الحيوان [١] ويسمى العقل بالعقل الوازع [٢] وقد دعا القرآن الكريم إلى النظر فى عواقب الأمور وجعل ذلك من مهمة العقلاء فقال تعالى: ﴿ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾[٣] وقال ﷻ: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾[٤]

المعنى الرابع: العقل بمعنى العلم التجاربى. أي المعرفة المستفادة من التجارب المعملية بحسب الأحوال والوسائل. فمن أمعن النظر ليوظف الأسباب ويجرى التجارب للوصول إلى النتائج المستهدفة لخدمة العلم وتحقيق النفع للناس فهو عاقل، وكذلك من حنكته التجارب فى دنيا التعامل مع الناس فبات أخبر بطرق التعامل معهم، فهو عادة عاقل. لأنه وأخذ التوقي والحذر .

والواقع أن أغلب أقسام العقل هذه تتفاوت فيها الناس. فالعقل الوازع الذي يقهر الشهوة، لا يخفى تفاوت الناس فيه . فمنهم من يقوى ومنهم من يضعف، بل يدخله تفاوت أحوال الشخص الواحد فيه، إذ قد يقدر العاقل على ترك بعض الشهوات، دون بعض[٥] وأم العقل بمعنى علم التجارب فتفاوت الناس فيه لا ينكر . بل واقع ومشاهد فإن من الباحثين فى علوم التجارب، من يكون فى إدراك المعلومة وتصور الفكرة أسرع. وفى

---

(١) أحياء علوم الدين، الجزء ١ ن صفحة ١٠٤

(٢) الوازع اسم فاعل، من وزع بمعنى منع . وزعته عن الأمر منعته عنه وحبسته، ولذلك جاء في التنزيل : " وحشر لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير فهم يوزعون " (النمل : أية رقم ١٧)، فقيل : "يوزعون "، أي حبس أولهم على آخرهم، المفردات فى غريب القرآن، صفحة ٥٢١، ٥٢٢، المصباح المنير،٦٥٧ .

(٣) سورة البقرة أية رقم ٤٤

(٤) سورة الأنعام : أية رقم ١٥١

(٥) إحياء علوم الدين : الجزء ١، صفحة ١٠٦ .

المختبرات العلمية أدق وأعمق. ففاق غيره من الباحثين فى نفس المجال، وإنما يرجع التفاوت بين الناس فى هذا الميدان إما للتفاوت فى الغريزة أي التمايز الفطري فى النبوغ وإما للتفاوت فى الممارسة. أى كيفية استخدام آليات البحث للوصول لأفضل النتائج.

ويقاس مدى تحقق الإصابة فى النتائج بمدى الدقة فى اختيار مكونات التجارب البحثية، والتدرج فى الاختبارات المعملية للتأكد من مدى صحة المقدمات لتحقق أفضل النتائج.

وتلك هى سنه الله، الجارية فى جميع خلقة، أنه أقام فيهم التدريج للوصول إلى الغاية المثلى سواء فى الخلق أو فى التشريع.

فمثلا فى الخلق، لم ينشأ الجنين جنينا كامل الخلقة دفعة واحدة، وإنما جعله نطفة، ثم علقه، ثم مضغة، ثم عظاما، ثم كسا العظام لحما، ثم نفخ فيه الروح فكان إنسانا[١] وحتى بعد أن أصبح صبيا بعد الولادة لم يظهر الله الشهوة عند البلوغ دفعة واحدة، وإنما جعلها تظهر شيئا فشيئا على التدرج حتى اكتملت عند البلوغ[٢] أما فى التشريع فالنموذج الظاهر فى التدرج هو تحريم الخمر، فأول الجواب عمها أنه الله ﷻ قرر، أن الخمر وإن كانت تجلب نفعا، بالتجارب فيها، فإنها تجلب إثما وشراً أكبر مما تجلب نفعا. فقال تعالى : ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ ۖ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ﴾[٣] فتركها بعض الناس وقالوا: لا حاجة لنا فيما فيه إثم كبير، ومضى بعض الناس فى الوقوع فيها، وقالوا : نأخذ

---

(١) يؤخذ هذا التدريج من قوله تعالى : ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين (١٣) ثم خلقنا النطفة علقه فخلقنا العلقه مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين " (سورة المؤمنون: أية رقم ١٣، ١٤)

(٢) إحياء علوم الدين، الجزء ١، صفحة ١٠٦ .

(٣) سورة البقرة : أية رقم ٢١٩

منفعتها، ونترك إثمهما، حتى نزلت الآية وهى قولة تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ ﴾[١] فتركها بعض الناس وقالوا: لا حاجة لنا فيما يشغلنا عن الصلاة. وشربها بعض الناس فى غير أوقات الصلاة. حتى نزلت الآية القاطعة فقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾[٢] فاقتضى ذلك الاجتناب المطلق الذي لا ينتفع معه بشئ بوجه من الوجوه[٣] فدل هذا على أن التدرج فى الوصول إلى غاية المأمول سنة من سنن الإسلام،وأصل مقرر شرعا. وهو نفس المنهج الذى تتبعه المؤسسات العلمية الحديثة، تنتقل بالفكرة من حال إلى حال وتتدرج بها للوصول إلى الحد الذى أذن الله به فى الحقيقة العلمية، وبما يحقق نفعا للبشرية.

(١) سورة النساء : أية رقم ٤٣
(٢) سورة المائدة أية رقم ٩٠
(٣) تفسير القرطبى، الجزء ٣، صفحة ٢٣٧٧، ٢٣٨٠

obeikandl.com

خصائص العقل فى الفكر الإسلامى

يتميز الخطاب القرآني فى الآيات العقلية، بأنه ينبه إلى وظائف العقل وخصائصه، وأن هذه الخصائص تتعدد بتعدد مواطن الخطاب الوارد فى شأن العقل وتنوع مناسباته. فنجد من آيات القرآن الكريم ما تخاطب العقل الوازع، بينما تجد أخرى تخاطب العقل المدرك، الذى يفهم الأمور ويتصورها، وثالثة، تخاطب العقل المتأمل والمتدبر، لاستخلاص النتائج، والأحكام ن مما يدل على أن التفكير فى آيات الكون فريضة إسلامية للاستفادة من عطاءات الله تعالى فيه من كل وجه بما يحقق مصالح الإنسان. وهو ما يرمز إلى قيمة العقل فى الإسلام.

يقول الأستاذ العقاد : " وفريضة التفكير فى القرآن الكريم تشمل العقل الإنسانى بكل ما احتواه من هذه الوظائف بجميع خصائصها، ومدلولاتها . فهو يخاطب العقل الوزاع، والعقل المدرك، والعقل الحكيم (المتأمل) والعقل الرشيد . ولا يذكر القرآن الكريم العقل عرضا مقتضبا، بل يذكره ن مقصودا، مفصلا على النحو لا نظير لَه فى كتاب من كتب الأديان الأخرى [١] . **وللتعرف على أهم خصائص العقل ووظائفه أعرضها فيما يلي:**

أ- **العقل الوزاع:** أى الذى يحول بين صاحبه وبين ما يشتهيه مما هو محظور عليه . فيمنعه من الوقوع فيه، وهو بهذا الوصف مشتق من مادة "عقل " بمعنى مسك ومنع، ومنها عقل البعير، أي إمساكه عن الإفلات.

وهذه الخاصية تتميز بأنها إذا توافرت انطلقت من عباءتها الخصائص الأخرى، لن الإنسان إذا قمع نفسه عن الاشتغال بإفرازات الإفساد، فإنه يضحى خاليا من كل ما يشوش [٢] على صفاء الذهن وتوقد العقل، فينطلق

---

(١) التفكير فريضة إسلامية، عباس العقاد، صفحة ٥ نهضة للطباعة والنشر.

(٢) شوشت عليه المر تشويشا خلطته عليه، المصباح لمنير، صفحة ٣٢٧ .

إلى التأمل والابتكار، وبذلك يكون العقل الوازع هو المهيئ لانطلاق العقل المدرك والعقل المتأمل. ولذلك اهتم القرآن الكريم بالتنبيه إلى هذه الخاصية المميزة للعقل فذكر بها، محذرا من الوقوع فى الشهوات المغيبة للعقل . ومن ذلك .

قولَه تعالى: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾[١] وفى التحذير من الإعراض عن العقل، قال تعالى: ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾[٢] والمعنى لو كنا نسمع سماع من يعى ويفكر، أو نعقل عقل من يميز، وينظر، ما كان مالنا إلى السعير يوم الدين.[٣]

وفى بيان لأسباب التشتيت والفرقة بين الأمم، أشار القرآن الكريم إلى أن ذلك مرجعة إلى تعطل العقل. قال تعالى: ﴿ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴾[٤] أى أن التشتيت والفرقة، إنما يرجعان إلى أن هؤلاء لا عقل لهم يعقلون به أمر الله، ويهتدون به إلى اتباع الحق . وفى الحث على تحكيم العقل وأخذ العبرة من أحداث التاريخ، حذرا من الوقوع فى أخطاء الآخرين. قال تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۗ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾[٥] .

ب- **العقل المدرك** : وهذه خاصية عبر عنها القرآن الكريم بأولى الألباب. لأن اللب هو العقل، الفاهم، المدرك الذى خلص من الشوائب وبات زكيا[٦] لإدراك الأحكام من أدلتها.

---

(١) سورة الأنعام : أية رقم ١٥١
(٢) سورة الملك : أية رقم ١٠
(٣) تفسير القرطبى، الجزء ١، صفحة ٦٩٣٩ .
(٤) سورة الحشر : أية رقم ١٤
(٥) سورة يوسف : أية رقم ١٠٩
(٦) الزكى وصف يلحق الإنسان وغيره، مأخوذ من الزكا بمعنى النمو الحاصل عن بركة الله تعالى ومنه الزكاة المفروضة فى المال، والعقل الزكى هنا أي نمت مواهبه وإدراكاته، ببركة الله تعالى فاصبح مزكى ==

ولذلك فكل خطاب فى القرآن الكريم نزل متوجها إلى ذوى الألباب فإنه خطاب إلى العقل المدرك، ومن ذلك ما يأتى:

١- قال تعالى: ﴿ وَٱلرَّٰسِخُونَ [١] فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾[٢]

فقد أثنى الله تعالى الآية على أهل الرسوخ فى العلم، لأنهم استعملوا عقولهم فى فهم القرآن وأدركوا بالدلائل اللفظية أن كله – المحكم منه والمتشابه – من عند الله، ثم أعلى شأنهم فأشار فى الآية إلى أنه لا يتفهم أبعاد آيات القرآن الكريم إلا ذووا العقول الواعية الذين يدركون الأحكام من الدلائل، مما يعد تشريفا للعقل المدرك الواعي بالدلائل والأحكام.

٢- وقال ﷻ: ﴿ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾[٣]

٣- وقال سبحانه: ﴿ يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾[٤]

فأشارت آية الزمر إلى أن الذين يتخيرون الحسن من القول ويتفاعلون معه دون القبيح، هم أصحاب العقول الخالصة الواعية، فاستحقوا الهداية من الله، لما يقصدون، وإعانته لهم فيما يطلبون . وأفادت آية البقرة إلى أن الله ﷻ أعطى الحكمة فى معرفة دلائل القرآن، الفقه فى الدين والعمل به، لمن يدركها وأنه لن يدرك ذلك إلا من وهبه الله مفتاح الحكمة وهو العقل

=بالخلقة، ومنه قوله تعالى : " لأهب لك غلاما زكيا " (سورة مريم آية رقم ١٩) المفردات فى غريب القرآن، صفحة ٢١٣، ٢١٤

(١) أصل الرسخ الثابت المتمكن، والراسخ فى العلم، المتحقق به، والمتمكن منه، الذى لا يعرضة شبهة، المفردات فى غريب القرآن، صفحة ١٩٥

(٢) سورة آل عمران : أية رقم ٧ .

(٣) سورة الزمر : أية رقم ١٨ .

(٤) سورة البقرة : أية رقم ٢٦٩

المدرك، لذلك قال تعالى: ﴿ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾[١] .

ومن خلال هذه الآيات القرآنية يتبين لنا أن العقل المدرك، له نصيب من الفهم والوعى، ما يجعل صاحبه من أولى الحكمة ويرتقى بها فوق العقل الوازع حيث يمكنه بها التمييز بين الحسن والأحسن. ولذلك خاطب الله ﷻ العقل هنا باللب، أي الخالص باعتباره معدن الإدراك والفهم فى ذهن الإنسان.

قال الراغب الأصفهاني[٢] : "علق الله تعالى الأحكام التى لا يدركها إلا العقول الذكية، بأولى اللباب، ومنه قولَه تعالى : ﴿ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾[٣]

وقال الرازي : "لأن العقل لَه ظاهر وله لب، ففى أول الأمر يكون عقلا وفى كمال الحال يكون لبا"[٤]

جـ- العقل المتأمل المفكر :

وهذه خاصية أدق من الخاصيتين السابقتين، فهى تتعلق بإعمال ملكة الفكر للنظر، والتدبر والتعمق، بعد إدراك الأشياء وتصورها، وبناء على هذا التأمل تدخل الفكر دائرة والتحليل والبحث المنهجى والتقليب على كل الوجوه، لاستخلاص زُبد الرأي فيها، والوصول لأفضل النتائج للإعلان عنها، مما يجعل الإنسان يرتقي بهذه الوظيفة العقلية إلى منزلة الرسوخ فى العلم[٥] وكما تلعب هذه الخاصية للعقل دورا كبيرا فى مجال العلوم النظرية فإن دورها أعظم فى مجال البحثية التى تقوم على التجارب المعملية.

---

(١) سورة البقرة : أية رقم ٢٦٩

(٢) المفردات فى غريب القرآن، صفحة ٤٤٦

(٣) سورة البقرة : أية رقم ٢٦٩

(٤) تفسير الرازى، مفاتيح الغيب (أو التفسير الكبير) للإمام فخر الدين الرازى، طبعة دار الفكر، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م الجزء ٣، صفحة ٦١٨

(٥) التفكير فريضة إسلامية، صفحة ٩.

القرآن الكريم والعقل المتأمل

قد جاء الخطاب القرآني فى شأن العقل المتأمل متنوعا، وفقا للعلوم النظرية، والعلوم البحثية. ففي مجال العلوم النظرية قال تعالى فى العقل المتأمل للوصول إلى الحقيقة ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَلَهُ ٱخْتِلَٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾[١] فمن يتأمل الحياة والعدم، وظلام الليل وضوء النهار، يسلم بأن هذه لا تكون إلا بقدرة قادر وقهر غالب. وقال ﷻ: ﴿ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ [٢] ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا [٣] سُبْحَٰنَكَ [٤] ﴾[٥] وقال ﷻ: ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴾[٦]، قال القرطبي: المراد نظر اعتبار وتفكر، للتيقن بأن القادر على إيجادها قادر على الإعادة[٧] وقال تعالى: ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ۝ كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴾[٨] وقد كان إبراهيم عليه السلام كما نقل عنه القرآن الكريم أول من استخدم منهج التأمل والانتقال من حال إلى حال للوصول إلى الحقيقة رافضا منهج التقليد وإلغاء العقل[٩].

---

(١) سورة المؤمنون :أية رقم ٨٠ .

(٢) إشارة إلى عبودية الله باللسان.

(٣) إشارة إلى عبودية الجوارح والأعضاء.

(٤) إشارة إلى عبودية القلب، والفكر والروح، ويعنى هذا أن اللسان إذا كان مستغرقاً فى الذكر، والجوارح والأركان فى الشكر، والجنان فى التفكر كان العبد بجميع أجزائه مستغرقاً فى العبودية، لأن اللسان ليس إلا مجموع هذه الثلاثة.

(٥) سورة آل عمران أية رقم ١٩١ .

(٦) سورة ق : أية رقم ٦ .

(٧) تفسير القرطبي، الجزء ٩، صفحة ٦٤٠٤

(٨) سورة طه : أية رقم ٥٣، ٥٤ .

(٩) فقد رفض ما كان عليه قومه من عبادة الأصنام كما جاء فى قولة تعالى : "وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر أتتخذ أصناما آلهة إنى أراك وقومك فى ضلال مبين " (سورة الأنعام : أية رقم ٧٤).

وسجلت الآيات الكريمة هذا المنهج الفريد فى الاستدلال. فقال تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْآفِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾[1]

فأشارت هذه الآيات الكريمة إلى أن العقل المتأمل يلعب دورا عظيما في الوصول للحقيقة[2] وهى دعوة لتفعيلة لاكتشاف الحقائق العلمية. أما فى مجال العلوم البحثية سواء كانت كونية أو إنسانية، فقد جاء الخطاب القرآني حثاً عليها وتنشيطاً للعقل المتأمل المبتكر، ففى البحوث الكونية نجد قولَه تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾[3]، فالآية تلفت الانتباه إلى أن المجموعة العلوية من شمس وقمر ونجوم، إنما تحمل منافع للبشرية على وجه العموم، ولن تصل البشرية إلى هذه المنافع، إلا بإعمال العقل وفتح آفاق جديدة فى علوم الفضاء والكونيات لخدمة العلم الديني، والعلم الإنساني .

أما خدمة العلم الديني فمن خلال آلية معاصرة ترصد ميلاد الهلال لتوحيد الرؤية فى جميع بلدان العالم الإسلامى للعمل بها فى العبادات والمواسم والأعياد، تفعيلا لوحدة المسلمين

---

(١) سورة الأنعام أية رقم (٧٦، ٧٧، ٧٨، ٧٩).

(٢) وقد كافأ الله ﷻ إبراهيم عليه السلام لاستخدامه منهج التأمل والتفكر للوصول للحقيقة بأن كشف له فى ملكوت السموات والأرض ما لم يكشفه لغيره حتى يصل بعلمه لدرجة اليقين . فقال تعالى :" وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين" سورة الأنعام أية رقم ٧٥.

(٣) سورة يونس : أية رقم ٥

وأما خدمة العلم الإنسانى فمن خلال آليات البث الصناعي تسهيلا للتواصل بين الحضارات وتحريكاً للمعلومات بين دول الإسلام والانطلاق إلى العلمية لنشر الفكر الإسلامى الصحيح، عقيدة وشريعة، أخلاقاً وآداباً، منهجاً وسلوكاً تأكيدا لعالمية الإسلام . ولن تستعصي هذه المجموعات الكونية العلوية على ذوي العقول النابهة، وذوى الخبرات المتخصصة الذين عناهم القرآن الكريم بأهل الذكر[١]، وأولى الحكمة[٢].

ذلك أن الفضائيات كلها مسخرة لمصالح الإنسان أينما كان، وفى أي زمان تحقيقا لقوله تعالى: ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾[٣]

قال الإمام الرازى: معلقاً على الآية، هذه الآية بشارة عظيمة للعقلاء. لأنه تعالى قال: ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ﴾ أي أن الذي يربيكم، ويصلح شأنكم، ويوصل إليكم الخيرات، ويدفع عنكم المكروهات، وهو الذى بلـغ كمال قدرته، وعلمه وحكمته حيث خلق هذه الأشياء العظيمة، وأودع فيها أصناف المنافع، وأنواع الخيرات "[٤] ونظيرها قولـه تعالى: ﴿ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَـٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾[٥].

فمن إعجاز الآية أنها ربطت بين الرياح والسحب وانهما متلازمان لإنزال المطر لإحياء الأرض الموات، فقد ثبت علميا أن الرياح هى التى

---

(١) فى قولـه تعالى : "فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون " (سورة النحل : أية رقم ٤٣).

(٢) كما فى قولة سبحانه :"يؤتى الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد اوتى خيرا كثيرا (سورة البقرة أية رقم ٢٦٩)

(٣) سورة الأعراف أية رقم ٥٤ .

(٤) تفسير الرازي، الجزء ٧، صفحة ٩٩ .

(٥) سورة البقرة أية رقم ١٦٤

تثير السحب. حتى تجود بالمطر. وفقا لما أشارت إليه آية الروم فى قولَه تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابٗا فَسُقۡنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٖ مَّيِّتٖ فَأَحۡيَيۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا ﴾(١).

ومن وجه أخر قررت الآية أن من حكمة الله فى سننه الكونية انه خلق الرياح ووجهها وفقا للمصلحة التى أنيطت بها بحيث تعود فى النهاية بالنفع على العباد وهى فى ذلك مسخرة بإدارة إلهيه متفردة أخذا من قولَه تعالى: ﴿ وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ﴾(٢) وحتى ينشط العلم بكل تقنياته للانتفاع بتصريف الرياح وموجاتها المتغيرة من حال إلى حال بتقدير العزيز الوهاب: توطئة للاستفادة منها من كل وجه وفى كل عصر، سواء فى علوم الاتصال أو تكنولوجيا الفضاء.

ولقد وجه الله تعالى الخطاب فى هذه الآية إلى أولى العقل والنظر. فقال تعالى: ﴿ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ﴾(٣)، مما يشعر بأن العلم بالمجموعات الكونية العلوية إنما يبلغ مدارجه بالعقل المتأمل من خلال البحوث والتجارب المعملية .

تنفيذا لقوله تعالى: ﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾(٤) وقولَه ﷻ : ﴿ يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ إِنِ ٱسۡتَطَعۡتُمۡ أَن تَنفُذُواْ مِنۡ أَقۡطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ فَٱنفُذُواْۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلۡطَٰنٖ ﴾(٥) .

والسلطان هو الحجة التي وهبها الله تعالى لأولى الألباب، للنهل من

(١) سورة فاطر : آية رقم ٩
(٢) سورة البقرة آية رقم ١٦٤
(٣) سورة البقرة آية رقم ١٦٤
(٤) سورة يونس آية رقم ١٠١
(٥) سورة الرحمن آية رقم ٣٣

عطائه فى الأرض والسموات . ﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا ﴾[١] .

ومن هذه الآيات يتضح أن الله ﷻ شرف العقل بملكات تمكن الإنسان من اكتشاف الحقائق العلمية بناء على ما ساقه فى القرآن الكريم من منهج الاستدلال القائم على سلامة الفروض والمسلمات. أما فى مجال البحوث الإنسانية، فقد نبه القرآن الكريم فى إشارته إلى علم الأجنة ولفته النظر إلى الخلايا الحية، التى تؤكد أن الجسم الانسانى يقوم على توازن دقيق محكم، مما يستلزم إعمال العقل فى ميدان البحوث الإنسانية التجريبية. للغوص فى دقائق الجسم وأسراره، كشفا لإعجاز الخالق فى الخلق ﴿ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾[٢] تجد ذلك فى قولَه تعالى: ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ۝ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾[٣] وتلخيصا لهذا التسلسل قال تعالى: ﴿ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴾[٤] فأشارت الآيات إلى أن الجنين يتخلق دفعة واحدة وإنما يمر بأطوار مختلفة، مما يفتح باب البحث العلمى لمعرفة مراحل نموه ورصد نوعه ذكرا أو أنثى وفى المقابل نبه القرآن الكريم إلى هناك حالات ينعدم فيها الإنجاب أو تعوقه مشاكل فى التخصيب ليفتح بابا من أبواب العلم فى علاج العقم وفقا لمشيئته سبحانه، فقال ﷻ: ﴿ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ۝ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ﴾[٥] .

وفى آية أخرى لفت الانتباه إلى انتقال الصفات الوراثية عن طريق الجينات التى تكونت من مزيج ماء الرجل والمرأة فقال تعالى : ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا

---

(١) سورة النساء آية رقم ١٢٢

(٢) سورة الذاريات آية رقم ٢١

(٣) سورة المؤمنون آية رقم ١٣، ١٤

(٤) سورة نوح آية رقم ١٤ .

(٥) سورة الشورى آية رقم ٤٩، ٥٠

ٱلْإِنسَـٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ ﴾[١]، فالأمشاج هى الخليط من نطفة الرجل وبويضة المرأة الذين يساهمان فى تكوين النطفة الملقحة والتي بدورها تحمل الكروموسومات والجينات التى تدخل فى تكوين الجنين وتعطى الإشارة بتمثيل الصفات الوراثية سواء فى الأبوين المباشرين أو الأجداد والجدات[٢].

وأدوات العلم الحديثة تلعب دوراً مهماً فى كشف هذه الصفات عن طريق الجينات والخلايا، التى ترجع فى الأصل إلى النطفة الأمشاج . ﴿ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ ﴾[٣].

والحاصل : أن اهتمام القرآن الكريم بخطاب العقل إنما يعكس رؤية الإسلام للبحث العلمى ومنهج الاستدلال، وإعمال العقل فيه سواء بالإدراك والتصور، أو بالتأمل والتدبر، وتحرير العقل من كل ما يقيده عن حسن الإدراك وبلوغ حد الابتكار. مما يعطى انطباعا لدى الكافة، أن الإسلام يحترم العقل ويفتح لَه الباب للانطلاق إلى الآفاق سواء فى العلوم النظرية أو العلوم البحثية التجريبية على نحو ما أسلفنا. ذلك لتحقيق مقاصد الشرع فى مصالح الخلق، وللاستفادة بأقصى طاقة من مسخرات الكون، وهذا الاهتمام بالعقل فى الفكر الإسلامي إنما يؤسس على أن العقل هو منبع العلم، ومطلعة وأساسه، فالعلم – كما يقول الغزالى – يجري من العقل مجرى الثمر من الشجرة، والنور من الشمس، من العين . لهذا كان شرف العقل مدركا بالضرورة[٤]، وهو ما حدا بالسنة الشريفة أن تهتم بالعقل وتعلى من قدره فى اكثر من حديث رواها الغزالي في الإسلام نذكر منها .

---

(١) سورة الإنسان : آية رقم ٢

(٢) الإعجاز العلمي فى الإسلام (القرآن الكريم) محمد كامل عبد الصمد، صفحة ٢٠٠، ٢٠١ و الدار المصرية اللبنانية.

(٣) سورة المؤمنون آية رقم ١٤

(٤) إحياء علوم الدين، الجزء ١، صفحة ١٠١ .

١- عن أنس رضي الله عنه قال : "أثنى قوم على رجل عند النبي – ﷺ – حتى بالغوا . فقال ﷺ كيف عقل الرجل ؟ فقال نخبرك عن اجتهاد فى العبادة، وأصناف الخير، وتسألنا عن عقله ؟ فقال ﷺ : "إن الأحمق يصيب بجهله أكثر من فجور الفاجر، وإنما يريد العباد غدا فى الدرجات الزلفى من ربهم على قدر عقولهم "[١].

٢- عن عمر رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ اكتسب رجل مثل فضل عقل يهدي صاحبه إلى هدى، ويرده عن ردي، ومن إيمان عبد، ولا استقام دينه حتى يكمل عقله ".

٣- وعن ابن عباس رصي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : "لكل شئ آلة، وعدة، وإن آلة المؤمن العقل، ولكل شئ مطية، ومطية المرء العقل . ولكل شئ دعامة، ودعامة الدين العقل "[٢]

(١) نوادر الأصول فى أحاديث الرسول : الجزء٢، صفحة ٣٥٧ .

(٢) إحياء علوم الدين بتخريج الحافظ العراقي للوقوف على مصدر هذه الأحاديث وسندها الجزء ١، صفحة ١٠٢ ، ١٠٣، طبعة العد العربي.

obeikandl.com

المبحث الثالث

تعظيم العلم وإكبار العلماء

مبدأ أصيل في الإسلام

obeikandl.com

obeikandl.com

المبحث الثالث

تعظيم العلم[1] وإكبار العلماء مبدأ أصيل فى الإسلام

قبل الدخول فى عرض موقف الإسلام من العلم والعلماء حرى بنا أن نطرح سؤالا فى غاية الأهمية، ربما يتردد كثيرا فى الأوساط العلمية، والأوساط الثقافية. وهو: هل العلم يتعارض مع الدين؟ وبصيغة أكثر صراحة هل يقف الإسلام كدين عائقا أمام الحقائق العلمية؟ وهل يحجر على فكر العلماء فيعوق تقدمهم فى البحث والتقصي للوصول إلى حد الابتكار والإبداع ؟ وهل من الوارد أن يتهم الإسلام كدين بأنه يوصد الباب فى وجه العلم، ويغل إبداعاته؟

وإذا كان السؤال هكذا على درجة كبيرة من الأهمية ؟ فإن الإجابة عليه تكون بالضرورة أكثر أهمية . لأنها ترد الأمور إلى نصابها، وتضع الحقائق كاملة بالتقصي والاستقراء،بحيث ترفع هذا اللغط عن موقف الإسلام من العلم، وتزيح الغمامة عن التوافق بين الإسلام كدين خاتم، وبين العلم كضياء يرتقى بالبشرية فى أعلى عليين .

---

(١) العلم مصدر علم . من علم الشئ – بالكسر – يعلمه علماء بمعنى عرفه . ويقال رجل علامة . أى عالم جدا، والهاء للمبالغة، كما يقال : علمه الشئ تعليما فتعلمه، وتعالمه الجميع، أي علموه . أما العالم – بفتح اللام – فهو الخلق، والجمع العوالم و العالمون أصناف الخلق ويأتى العلم بمعنى اليقين، يقال علم الشئ أي تيقن، والعلم إن حصل من كسب فهو مسبوق بجهل ومنه قوله تعالى : "ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق " سورة المائدة آية رقم ٨٣ وعرفوا أي علموا والعلم على ضربين العلم النظري، كالعلم بموجودات العلم و العلمى ما لا يتم إلا بأن يعمل أي العلم التطبيقى كالعلم بالعبادات للعلم بها، وأعلمته، وعلمته فى الأصل واحد . إلا ان الإعلام اختص بما كان بإخبار سريع والتعليم اختص بما يكون بتكرير وتكثير حتى يحصل منه أثر فى نفس المتعلم .

وقيل : إن التعليم تنبيه النفس لتصور المعانى، والتعلم تنبه النفس لإدراك هذه المعنى فى روعة ليتصورها ثم جعل له قوة و بها نطق ووضع أسماء الأشياء . وهو نوع من العلم الخاص الذي اختص الله به بعض عباده كقوله تعالى: "وعلمناه من لدنا علما" سورة الكهف آية رقم ٦٥ وقوله : "أتبعك على ان تعلمن مما علمت رشدا " الكهف آية ٦٦ وقوله : "قال الذي عنده علم من الكتاب " سورة النمل آية رقم ٤٠ المفرادت فى غريب القرآن، صفحة ٣٤٣، ٣٤٤، مختار الصحاح، محمد بن أبى بكر الرازي – طبع دار نهضة مصر للطبع والنشر .

لذلك فإجابتنا على هذا السؤال هي: أن الإسلام كدين ورسالة لا يمكن أن يغل العلم فى أي مرحلة من مراحله أو يعوق تقدمه بل إنه يوجهه إلى ما فيه الخير للبشرية، ويصحح مساره لخدمة مصالح الإنسان أينما كان، وفى أى زمان، بل إن القرآن الكريم، وهو وحي الله المنزل، نهج طريق العلم فى كشف دلائل قدره الله فى الكون والخلق للوصول إلى الحقائق الدالة على الإيمان بوحدانية الله كما فى قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾[1] وقوله ﷻ: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾[2] قوله ﷻ: ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا ﴾[3].

دلت الآيات على أن مسخرات الله فى الكون، من شمس، وقمر وليل ونهار، إنما تفضل الله بها على عباده، ليعلموا من حركتها، عدد السنين وحساب الأيام، وبداية ونهاية الشهور والفصول فيضبطوا عليها مواسم الزراعة والحصاد، ليبتغوا فيها من فضل الله[4] ولتأخذهم إلى مواضع الحجج، والدلائل، ليعلموا قدرة الله فى الخلق، وتدبيره فى الكون، فيفهموا عن الله أدلته على توحيده مما يرمز إلى توقف أمور الدين والمعاش، على العلم بمسخرات الله تعالى فى الكون فتثير فى النفس الاهتمام بالعلم فيها، وتقصى منافعها لإظهار قدرة الله فيها خدمة للدين، ورعاية لمصالح الإنسان

ومن هذا المنطلق فالدين لا يمكن – عقلاً ونقلاً – أن يغل[5] العلم فى

---

(١) سورة يونس آية رقم ٥

(٢) سورة فصلت : الآية رقم ٥٣.

(٣) سورة الإسراء: آية رقم ١٢

(٤) تفسير الراري، الجزء ٨، صفحة ٢٧٩ .

(٥) الغُل بالضم – الحديد، وهو طوق من حديد يجعل العنق، والجمع أغلال . المصباح المنير، صفحة ٤٥١، ٤٥٢

أي مرحلة من مراحله، وليس لَه من تحفظات على العلم سوى تحفظ واحد لا ينازع فيه عاقل . وهو أن يكون العلم بكل تقنياته الحديثة، وأدواته المعاصِرة علما نافعا يستخدم لصالح البشرية لا للأضرار بها، أو الإفساد فيها استنباطا من قولَه تعالى: ﴿ وَلَا تُفْسِدُوا فِي ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ﴾[١] لأن أخطر شئ على البشرية أن تكون من بين النشاط العلمى التفنن فى ابتكار أدوات الدماء والتخريب. فبئساه علم هذا الذي يؤدى إلى خراب الديار وفساد البيئات، وتقطيع الأرحام. ولذلك قدح فيه الإسلام وذمه، بل إنه جعله من عداوة الإنسان للبيئة، يجب أن يحارب .

وقد رمز القرآن الكريم إلى ذم العلم الفاسد بقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴾[٢]

فالولاية كما تكون فى السلطان، تكون فى العلم من تولى الشئ، تقلده: واستعمال العلم فى الإضرار العام من الولاية الفاسدة . قال تعالى : ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ﴾[٣] .

وخاصة إذا صاحبها الغرور، والإعراض عن النصيحة، فيكون المال سوء المصير .

ونبه إلى ذلك قولَه تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ ۚ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ ۚ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴾[٤] ولذلك فالتحفظ الوحيد للإسلام على العلم ألا يستخدم للإفساد فى الأرض أو النسل، آو تقطيع الأرحام.

(١) سورة الأعراف : آية رقم ٥٦
(٢) سورة البقرة : آية رقم ٢٠٥
(٣) سورة محمد : آية رقم ٢٢ / ٢٣
(٤) سورة البقرة : آية رقم ٢٠٦

وفى غير ذلك فالقضية فى العلاقة بين الدين والعلم في الإسلام، هي تعاضد لا تعارض، توافق، لا تصادم، بمعنى أن الدين لا يلغى العلم، ولا العلم ينحي الدين، فكلاهما يلزم الآخر، فالعلم يلزم الدين للتعريف به، وللتنبيه على إعجاز الخالق فى الخلق، والكون. لا أنه يتوقف عليه. وهذا هو المنهج الإسلامى لطرح قضية الإيمان فى القرآن الكريم والسنة .

فالتعرف على الدين عقيدة وشريعة إنما يتم بالعلم به، من خلال جملة المعارف، النازلة فى القرآن والسنة واحتوى الخطاب فيها على العلم للإشارة إلى ضرورته لمعرفة الدين، وفهم أحكامه بدقة .

١- ففى مجال العقيدة وردت خطابات كثيرة فى القرآن الكريم تبرز دور العلم فى خدمة الدين والعقيدة نذكر منها ما يأتى :

- قول الحق تبارك وتعالى: ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾[١] فأشارت الآية إلى أن المدخل إلى الإيمان بوجدانية الله تعالى هو العلم بأنه لا إله إلا هو إما بإعلام الله عن نفسه[٢] أو بتعليم العلم به عن طريق الاستدلال، كما فى قولَه تعالى: ﴿ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[٣]، وقولَه سبحانه: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾[٤] وهذا نموذج للعلم التجريبي القائم على البحث والتقصي فى مسخرات الكون لإدراك إعجاز الخالق سبحانه فيها للإذعان لَه بالوحدانية. قال الماوردى رحمه الله: فى قولَه تعالى: ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

---

(٢) سورة محمد آية رقم ١٩

(٢) كما فى قولَه تعالى : "شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم" سورة آل عمران آيه رقم ١٨

(٣) سورة النمل : اية رقم ٦١

(٤) سورة الأنعام اية رقم ٩٧

الأول : اعلم أن الله أعلمك أن لا إله إلا الله .

الثاني : ما علمته استدلالا بآياته، فاعلمه خبرا يقينا .

الثالث : معناه اذكر أن لا إله إلا الله، فعبر عن الذكر بالعلم لحدوثه عنه[١] .

وبالعلم يستقر فى الوجدان أن ما أنزل إلى الرسول الله ﷺ حق وصدق مما يقتضي الإيمان به عقلا ونقلا . كما فى قولَه تعالى: ﴿ ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْأٓيَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾[٢] ، وكما فى قولة سبحانه ﴿ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴾[٣] ذلك أن العلم الاستدلالي القائم على أعمال العقل فى آيات الكون لا يدركه بتمامه، ولا يعقل أسراره إلا العالم الدقيق المتخصص الذي يفقه مغزى ضرب الأمثال، فى القرآن للهداية للإيمان، قال تعالى: ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴾[٤] ذلك أن العلم لا يخرج عن نقل مصدق أو استدلال محقق .

٢- أما فى مجال الأحكام الشرعية : فقد فصلها القرآن الكريم فى اكثر من موضع وربط فهمها، مرة بالعلم ومرة بالعقل، باعتبار أن عقلها يوصل إلى العلم بها.

تجد ذلك فى الخطابات الآتية :-

١- قولَه تعالى: ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ كَذَٰلِكَ

---

(١) تفسير القرطبي، الجزء ٦ و صفحة ٦٢٩٢
(٢) سورة الحديد آية رقم ١٧
(٣) سورة سبأ آية رقم ٦
(٤) سورة العنكبوت آية رقم ٤٣

نُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾[١]

٢- وقوله ﷻ: ﴿ قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾[٢] فعقل هذه الوصايا، أي فهم مغزاها وحكمة تناولها بالتفصيل والغرض من سياقها مجتمعه فى الآية وهو رعاية ضروريات[٣] الإنسان، للمحافظة عليها والاهتمام بها، ولن يتحقق ذلك إلا بالعلم بأدلتها، وتنوع أحكامها، وفهم مقاصد الشريعة فيها.

أما السنة فمنها ما جاء فى الصحيح عن عمر بن الخطاب وأبي هريرة رضي الله عنهما أن النبي ﷺ كان بارزاً للناس يوما فأتاه جبريل فقال : ما الإيمان قال : الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته، وكتبه ورسله، وتؤمن بالبعث، فقال صدقت . ثم قال : فما الإسلام ؟ قال : أن تشهد ألا إله إلا الله، وأن محمد رسول الله، وتقيم الصلاة، وتؤتى الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلا، فقال صدقت . ثم قال : فما الإحسان ؟ قال : أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه، فإنه يراك . قال: صدقت . ثم قال الرسول ﷺ لأصحابه . أتدرون من السائل ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم"[٤] فقوله : "أتاكم

---

(١) سورة الأعراف آية رقم ٣٢

(٢) سورة الأنعام : ١٥١

(٣) ضروريات الإنسان هى ما يطلق عليها، الكليات الخمس، وهى الدين، والنفس، والمال، والنسل، والعقل، وقد تكلفت الشريعة بحمايتها من خلال النص على حرمتها والنص على العقاب على انتهاكها وهى مبسوطة فى كتب الفقة والأصول

(٤) الحيث فى صحيح مع الفتح، الجزء ١، صفحة ٩٦، ٩٧، دار إحياء التراث، صحيح مسلم بشرح النووي للإمام أبي الحسين مسلم بن الرجاج القسيرى النيسابورى، الطبعة الأولى – دار الحديث – القاهرة ١٤١٥هـ ١٩٩٤م، صفحة ١٥٧

يعلمكم دينكم " دليل على أهمية العلم فى حفظ أمور الدين، وأن السؤال من وحي الله جبريل كان لتنبيه الناس لما يصدر عن النبي ﷺ من إجابة لتستقر فى أذهانهم علوم الشريعة، وكون الرسول ﷺ سمى جبريل معلماً، والسؤال منه علما دلَّ على أن العلم الدقيق، هو ما كان عن سؤال حسن، وجواب محدد، تنبيهاً لإدراك الشئ وتصوره، وهو المناسب لفهم أمور الدين ولذلك قال القرطبي: هذا الحديث، يصلح أن يقال لَه أم السنة، لما تضمنه من جمل علم السنة .

وقال القاضي عياض : اشتمل هذا الحديث على جميع وظائف العبادات الظاهرة والباطنة، من عقود الإيمان وأعمال الجوارح ومن إخلاص السرائر، حتى أن علوم الشريعة كلها راجعة إليه ومتشعبة منه[١] ومما تقدم يتضح أن العلم يخدم الدين فى وجهين :

الوجه الأول: أنه يرد إلى حظيرة الإيمان من خلال كشف أسرار الكون وإعجاز الخالق فى تدبيره، سواء كان علما كونيا أو إنسانيا[٢] .

الوجه الثاني: الإعلام بشرائع الإسلام من خلال ربط الأحكام والتكاليف الشرعية بأدلتها فى القرآن والسنة، مما تتحقق معه رعاية الشرع لمصالح الخلق.

وإذا كان ذلك كذلك . فلا يمكن – من وجهة نظر الإسلام – أن يتنكر الدين للعلم سواء كان علما شرعيا، أو علما طبيعيا تجريبيا .

أما لزوم الدين للعلم فلا يخفى : فإن العلم يفتقر إلى الدين لكبح جماح الإنسان فى الاستخدامات العلمية سواء كانت صناعية أو إنسانية .

---

(١) فتح الباري، شرح صحيح البخارى للشيخ شهاب الدين أحمد بن على بن حجر العسقلانى المعروف بابن حجر مع صحيح البخارى طبعة دار المنار ١٤١٩هـ ١٩٩٩م، الجزء ١، صفحة ١٠٣ .

(٢) وفى ذلك جاء التنزيل فى قولَه تعالى: "سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق" سورة فصلت آية رقم ٥٤

لئلا يتعدى بالعلم على ثوابت الدين أو يدخل مناطق الخطر فى التناسل البشرى كاللعب فى الجينات الإنسانية لاستنساخ البشر، أو وضع النطف المنوية المخصبة فى غير محلها الشرعي، من خلال تأجير الأرحام أو تجميد النطف المنوية غير الشرعية بعد خلطها ومزجها صناعيا لإنتاج إنسان بمواصفات معينه بصرف النظر عن اختلاط النسب، أو جهالته، أو التنازع فيه مما يتسبب فى ضياع النسل، واختلاط الأنساب وإهدار كرامة الإنسانية، وشيوع الفاحشة الباطنة[١] وهنا يكون تدخل الدين ضرورة لكبح جماع العلم وللوقوف ضد التعدي على ثوابت الشرع، ولعدم الإضرار بالنسل والذرية، لأنها من الأمور المحكومة بثوابت لا تقبل الاجتهاد، ولا التنازع . أحدا من قولَه تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴾[٢] .

فبث النسل رزق من الله تعالى كما اخبر فى كتابه الكريم ﴿ لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ۝ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴾[٣] وفى قولَه تعالى: ﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ۝ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴾[٤]، ورزق الله لا يطلب إلا من الحلال الطيب تنفيذا لقوله تعالى: ﴿ فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ﴾[٥] ولهذا أجمعت الديان السماوية على أن الطريق الوحيد لبث النسل هو الزواج الشرعي . فإذا ما تجرد العلم من الدين، فإن

---

(١) من الفواحش الباطنة إدخال النطفة فى رحم غير الزوجة الشرعية لإنجاب ولد بالتحاليل، وقد حرم الله جميع الفواحش ظاهرها وباطنها بقوله تعالى : " قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن " (سورة الأعراف آية رقم ٣٣)

(٢) سورة النحل آية رقم ٧٢

(٣) سورة الشورى : ٤٩/٥٠

(٤) سورة الواقعة آية رقم ٥٨/٥٩

(٥) سورة النساء آية رقم ٣

صاحبه لا يتحرج فى أن يتعدى حدود الله، وقد يأخذه الغرور ونشوة الارتقاء فيستدرج من حيث لا يعلم . فيتطاول على المحظورات الشرعية وينتهك المقدسات الدينية وهو يحسب أنه يحسن صنعا . وقد حذر القرآن الكريم من تجاوز حدود الله، وانتهاك المحرمات . فقال تعالى: ﴿ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾[١] وقال ﷻ : ﴿ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٣﴾ وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴾[٢] .

ومحاربة العلم الضار أمر مقرر شرعا فى الإسلام لا بتناء الشريعة الإسلامية على مصالح الأنام ورفع الإضرار عنهم، أحدا من قولَه ﷺ " لا ضرر ولا ضرار "[٣] .

وقد أكد ذلك قولَه تعالى: ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾[٤] لذلك وجه الرسول ﷺ المسلمين أن يتبنوا العلم النافع ويلحوا فى طلبه، وينبذوا العلم الضار الذي لا ينفع فقال ﷺ : "سلوا الله علما نافعا، وتعوذوا من علم لا ينفع"[٥]

(١) سورة البقرة : آية رقم ٢٢٩
(٢) سورة القلم : ٤٤/٤٥
(٣) سنن ابن ماجة، الجزء ٢، صفحة ٧٨٤ س
(٤) سورة الكهف آية رقم ١٠٣/١٠٤
(٥) سنن ابن ماجة، الجزء ٢ صفحة ١٢٦٣

openkandil.com

الإسلام يعانق العلم النافع

الاتجاه العام فى الإسلام، أن الدين يحتضن العلم، بل ويشجعه بشرط أن يساهم فى إصلاح البشرية لا إفسادها، فإن أصول الإسلام من خلال استقراء النصوص تبرز دور العلم فى ارتقاء البشرية وتقدمها، وتوفق بينه وبين الدين، ويمكن الاستدلال على ذلك بما يأتى :

١- إخبار القرآن الكريم أن أبا البشر آدم عليه السلام إنما علا بالإنسانية بالعلم فترقى بما وهبه الله من علم غير مسبوق فاستحق الإكبار فأسجد الله له الملائكة سجود فضل واعتراف بالسبق، فى العلم، نقرأ ذلك في قوله تعالي : ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ۝ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾[1] أشارت الآيات إلى أن صفة العلم هى الصفة المميزة لأدم عمن سواه. فلو كان فى الإمكان شئ أشرف من العلم لأظهر الله فضل آدم بذلك الشئ، أما وقد أظهره على الملائكة بعلمه الذي علمه إياه فهو دليل على مكانة العلم عند الله، وقوله: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ﴾ وقوله : ﴿ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ﴾ دليل على أن الملائكة وآدم لا يعلمون إلا بتعليم الله تعالى إياهم، مما يدل على أن العلم هو عطاء الله لمن شاء من عباده، وهكذا لا يتميز الإنسان إلا بما أتاه الله من علم .

٢- أثبتت الخطابات القرآنية أن الوصول لحقائق الدين إنما يكون بالعلم. نذكر من ذلك قوله ﷻ: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ

(١) سورة البقرة آية رقم ٣١/٣٤

وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ ﴾[١] فكونه سبحانه بدأ بنفسه فشهد أن لا إله إلا هو، ثم ثنى بالملائكة فسجل شهادتهم ثم ثلث بأهل العلم فسجل شهادتهم، قارنا اسمهم باسمه واسم الملائكة فى إثبات الوحدانية. دل على انهم ما وصلوا إلى ذلك إلا بالعلم، فازدادوا شرفا، وعلوا.

روى القرطبي عن الكلبي أن الرسول ﷺ لما ظهر بالمدينة قدم عليه حبران من أهل الشام، فعرفاه بالصفة والنعت، فقالا: نسألك عن شهادة، فإن أخبرتنا بها آمنا بك وصدقناك، فقال : "سلاني" فقالا: أخبرنا عن أعظم شهادة فى كتاب الله ؟ فأنزل الله تعالى على نبيه ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ ﴾ [٢] فأسلم الرجلان وصدقاه وقولَه تعالى: ﴿ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾[٣] أشارت الآية إلى أن دلائل قدرة الله فى الكون وتدبيره فى الخلق إنما جاءت تذكره وتنبيها لأولى العلم وذوي الألباب للوصول إلى الحقيقة الإيمانية وهى إنما الله إله واحد، مما يعد تزكية للعلم الاستدلالي .

ثم انتقل الخطاب بعد ذلك إلى اشرف مهمة للعلم، وهى إفهام الخلق منطق الوحى فى بيان تنزيل الرب . فقال تعالى: ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ﴾[٤] قال القرطبى : فى قولَه ﴿ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ﴾ أي علم الله القران لنبيه ﷺ حتى أداه لجميع الناس .

أما قولَه ﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ﴾ فقال :ابن عباس وغيره، المراد بالإنسان إما آدم عليه السلام ويكون عمله اسم كل شئ ليميز بين المسميات.

أو هو محمد ﷺ، ويكون المعنى، أي علمه بيان الحلال والحرام،

---

(١) سورة آل عمران آية رقم ١٨
(٢) آل عمران آية رقم ١٨
(٣) سورة إبراهيم : آية رقم ٥٢
(٤) سورة الرحمن :آية رقم ٤/١

والهدى من الضلال. وعلى أي المرادين، ففضل العلم فى الإعلام بالأمور الكونية، والأمور الشرعية واقع حى تشهد لَه الآية.

٣- وفقاً للنسق القرآني فإنه سبحانه كما افتتح أول رسالاته للناس فى بدء الخلق بالعلم من خلال تعليمه لأبى البشر آدم ﷺ فى قولَه: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ﴾[١] افتتح آخر رسالاته للخلق رسالة خاتم النبيين سيدنا محمد ﷺ بالعلم فقال تعالى فى أول بث الرسالة ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾[٢].

وقد حفظ القرآن الكريم هذا التلاقى فى العلم بين بدء الرسالات وختمها في خطاب الله للمسلمين ليدل على أن الإسلام يعانق العلم ويحتضنه، ويحفظ لَه شأنه وتجديده إلى يوم الدين.

ولأمر ما، شاءت إرادة الله أن يكون العلم فى منهج الإسلام وإنما يكون بالاكتساب والمعرفة أي بالخط والكتابة وفقا لقوله تعالى ﴿ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴾

ولعل فى ذلك دعوة لتكثير العلم وانتشاره وارتقائه فى هذه الأمة حتى يتطور ويستمر تجدده وفقا لوسائل العصر وتقدم الأدوات وكذلك دعوة للتنافس فى اكتسابه ليرقى به من النابهين من يرقى. مما يعود بالنفع على البشرية وهو ما يشير إليه قولَه تعالى ﴿ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ ليدل على تطور العلم من جيل إلى جيل وأن استشراق المستقبل فى العلم هو منهج الإسلام نظيره قولَه تعالى ﴿ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾[٣].

---

(١) سورة البقرة آية رقم ٣١

(٢) سورة العلق آية رقم ٥/١

(٣) سورة النساء، الآية ١١٣ .

العلم قرين النبوات

مما ميز الله به أنبيائه وبعض الصالحين من عباده، أن اختص كل واحد منهم بعلم فاق عصره فيه مما يدل على أن العلم ذو ركن مكين فى منهج الأنبياء والنبوات مع تنوع هذا العلم وفقا لحاجة العصر ولقد حفظ لنا الذكر فى القرآن الكريم هذه الخاصية المتميزة للعلم ليدل على ارتباطه برسالات السماء من ذلك.

١- علم الله آدم عليه السلام أسماء مسميات وحقائق كل ما خلق الله من شئ وبجميع اللغات، مما نشأ عنه نغير الألسنة فى ولد آدم على وجه الأرض[١]. يؤخذ هذا من قولَه تعالى ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ﴾[٢]، وهو ما يطلق عليه "العلم الإنسانى" قال قتادة: علم آدم الأسماء أي أسماء خلقه ما لم يعلمه الملائكة، وسمى لَه كل شئ باسمه، وأنحى منفعة كل شئ إلى جنسه فعرف منافعها[٣] .

٢- علم إبراهيم عليه السلام علم المنطلق وتفنيد الحجج والاستدلال وكشف لَه بذلك ملكوت السموات والأرض وذكر القرآن الكريم هذا العلم فى قولَه تعالى ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ۝ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ ﴾ إلى قولَه ﴿ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴾[٤] ويسمى العلم الاستدلالى.

٣- علّم يوسف عليه السلام علم تعبير الرؤيا، وعلم التخطيط لمواجهة الأزمات . وقد نبأنا عن العلمين القرآن الكريم .. أما علم تعبير الرؤيا

---

(١) تفسير الرازى، جزء ١ الصفحة ٩١٥، ٩١٦ .
(٢) سورة البقرة، الآية رقم ٣١ .
(٣) لقرطبي فى التفسير، الجزء ١، صفحة ٣٢٦، طبعة الغد الع ربى.
(٤) سورة الأنعام، الآية ٧٥- ٧٨ .

فأشارت إليه الآيات فى قولَه تعالى ﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ ۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَعْصِرُ خَمْرًا ۖ وَقَالَ ٱلْءَاخَرُ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِى خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُ ۖ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾[١] فكان تأويله للرؤيا كما ذكر القرآن الكريم ﴿ يَٰصَٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِى رَبَّهُۥ خَمْرًا ۖ وَأَمَّا ٱلْءَاخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦ ۚ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴾[٢]. فكان تعليم يوسف عليه السلام تأويل الرؤيا. وحيا من الله ﷻ لقوله تعالى ﴿ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّى ۚ ﴾[٣]. أما علم التخطيط لمواجهة الأزمات. فأشارت إليه الآيات فى قولَه تعالى ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّىٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ[٤] سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ ﴾[٥]. فمن علمه بتعبير الرؤيا أخبر يوسف عليه السلام القوم بأنهم يواجهون أزمة مجاعة عامة. تحتاج إلى تخطيط علمى لمواجهتها. ثم شرع فى عرض خطته كما أنبأ عنها القرآن الكريم فى قولَه تعالى ﴿ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا[٦] فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِى سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴾[٧] أي أن مواجهة الأزمة تقتضي زراعة سبع سنين كما هى العادة الجارية على أن يأكلون القليل ويستبقوا من الأقوات ما يستعينون به فى السبع سنين الشداد ذات الجدب والقحط. ليأكلوا فيهن مما ادخره إلا يسيرا يضعوه فى الأحراز للظروف الطارئة. ثم زاده الله علما آخر فوق ما جاء فى الرؤيا الملك . فأخبرهم بما لم يسألوا عنه كما فى قولَه تعالى ﴿ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ

(١) سورة يوسف، الآية ٣٦ .
(٢) سورة يوسف، الآية ٤١ .
(٣) سورة يوسف، الآية ٣٧
(٤) عبر بها عن السبع سنين الخصبة.
(٥) سورة يوسف، الآية ٤٣.
(٦) الدأب : العادة.
(٧) سورة يوسف، الآية ٤٧ – ٤٨

وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴾ [١] أي يغاثون بالمطر فتقوم صناعة العصير للعنب والزيوت[٢]، والسمسم، وما أشبه ذلك. ولما زاده العلم تواضعا فرد علمه إلى الله تعالى حين قال: ﴿ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓ ﴾[٣]. مكن الله له فى الأرض وأعلاه بعلمه فقال تعالى ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ﴾[٤]. وقوله تعالى ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ ﴾[٥].

٤- وعلم سيدنا داود عليه السلام الصناعة فطوع له أهم عنصر من عناصر القوة فى الصناعة وهو الحديد، فأقام عليه صناعة الدروع للحماية من الحرب. تجد ذلك فى قوله تعالى ﴿ وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ۖ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ ﴾[٦]. وقوله عز وجل ﴿ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ۝ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ [٧] وَقَدِّرْ فِي ٱلسَّرْدِ [٨] وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ﴾[٩].

والدليل على أن هذه الصنعة هبه من الله تعالى ما ذكره القرآن عن علم سيدنا داود وسليمان فى قوله تعالى: ﴿ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾[١٠]، وفى هذا إشارة إلى أن القرآن الكريم احتضن علم الصناعة.

---

(١) سورة يوسف، الآية ٤٩.
(٢) تفسير القرطبي، الجزء ١، صفحة ٢٥٢ – ٢٥٥ .
(٣) سورة يوسف، الآية ٣٧.
(٤) سورة يوسف، الآية ٢١.
(٥) سورة يوسف، الآية ٥٦.
(٦) سورة الأنبياء، الآية ٨٠ .
(٧) لسابغات: الدروع الواسعة وتوسيعها أو تطويلها إنما يتم بإلانة الحديد وتطويعه للاستفادة منه.
(٨) أي اجعل النّسب فى الدرع على قدر المسمار فلا توسع النّسب فتقلقل المسامير منها، ولا تغلظ المسامير فيتسع النّسب، فلا تكون محكمة، وفى هذه إشارة لإتقان الصنعة وضبط أدواتها بمهارة مما يعطى بعداً لدور اتقان الصنعة فى تقدم الصناعة.
(٩) سورة سبأ، الآية ١٠ –١١ .
(١٠) سورة الأنبياء، الآية ٧٩.

وقال الرازى " أول من عمل الدروع داود ثم تعلم الناس منه، فتوارث الناس عنه ذلك، فعمت النعمة كل المحاربين من الخلق إلى الدهر، فلزمهم الشكر فقال تعالى: ﴿ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ ﴾[١] أي على ما يسره الله لكم من هذه الصناعة[٢]، ومع التقدم العلمى تطورت استخدامات الحديد ومشتقاته وصار مصدرا للصناعات المتقدمة، الثقيلة منها والخفيفة حتى أنه لا تخلوا صناعة حديثة أو تقنية متطورة من مشتقات الحديد مما يعنى استمرار نفعه للناس على الدوام . وقد أشار إلى قولَه تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ ﴾[٣].

٥- علم سيدنا الخضر عليه السلام الفراسة وحسن تقدير الموقف فأطلعه على ما لم يعلمه موسى عليه السلام. وذكر سبحانه خبره في القرآن الكريم في قولَه تعالى: ﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴾[٤]، إلى قولَه تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴾[٥] ويدخل هذا العلم اللدنى تحت "علم الفراسة"[٦].

٦- علم سيدنا عيسى عليه السلام، علم التوراة والإنجيل وكشف لَه علم الطب فكان يبرئ الأكمة والأبرص. وجاء ذكره فى قولَه تعالى فى

---

(١) سورة الأنبياء، الآية ٨٠.

(٢) تفسير الرازى، الجزء ١١، الصفحة ١٧٣، الجزء ١٢، الصفحة ٦٤٥ .

(٣) سورة الحديد، الآية ٢٥ .

(٤) وتمثل العلم الكشفى للخضر أنه خرق السفينة التى ركبها وموسى عليه السلام، ثم قتل الغلام ثم أقام جدارا كاد أن ينهدم، رغم أن أهل القرية بخلوا عليه بالضيافة . فاستغز ذلك موسى عليه السلام وانكر على الخضر ما فعل . فكشف له الخضر ما فعل . فكشف له الخضر ما خفى عليه واعلمه الله به دونه وهو ما ذكره الله فى القرآن الكريم ﴿ أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ۝ وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴾ ثم قال تعالى ﴿ وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا ﴾[الكهف ٧٩/٨٠، ٨٢] ثم إن الخضر عليه السلام كان أميا فرد علمه إلى إلهام الله لَه كما قال تعالى ﴿ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ ﴾ سورة الكهف الاية رقم ٦٥

(٥) سورة الكهف، الآية ٨٢ .

(٦) أصل الفراسة : التعرف على الشئ بالظن الصائب، من تفرست فيه الخير أى تعرتته بالظن الصائب، المصباح المنير، صفحة٤٦٧.

معرض النعم ﴿ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴾ إلى قولَه تعالى ﴿ وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِى ﴾[١].

٧- علم محمدا ﷺ الذكر الحكيم الذى فيه نبأ الأولين والآخرين . كما علمه جماع الشرع والتوحيد وبيان الحلال والحرام وكان علمه بها علما غير مسبوق[٢]، قال تعالى ﴿ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾[٣].

وقال ﷻ ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ ۝ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ﴾[٤].

ثم زاده فضلا فعلمه علما زائدا أسند صوغه إليه ليعلمه الناس، وهو السنة الشريفة كما فى قولَه تعالى: ﴿ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ ﴾[٥] قال قتاده: الحكمة السنة وبيان الشرائع . ثم أمر الأمة بالتعليم منها فقال: ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا ﴾[٦].

هذا وتتضمن الآيات إشارات إلى أن علم الرسول – ﷺ – وأمته إنما جاء فى ما لم جاء فى ما لم يكن يعلمه، لتدل على أنه كان علما غائبا، ثم فجر الله ينابيعه لهم، من خلال عرض القرآن الكريم، لعلوم العقيدة[٧]

---

(١) سورة المائدة، الآية رقم ١١٠ .

(٢) تفسير الرازى، الجزء ١، صفحة ٦٠٧ – ٦٠٨، غرائب القرآن ورغائب الفرقان، للإمام نظام الدين الحسن بن محمد بن الحسين النيسابورى، الجزء ١، الصفحة ٣٣، دار الصفوة، ١٩٩٥ .

(٣) سورة النساء، الآية رقم ١١٣ .

(٤) سورة الرحمن، الآية رقم ١ – ٤ .

(٥) سورة البقرة : آية رقم ١٢٩

(٦) سورة الحشر : آية رقم ٧

(٧) كما فى تولَه تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِى إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴾ سورة الأنبياء: آية ٢٥ وقوله تعالى ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ الأنبياء : آية رقم ٢٢

والشريعة[١] والكونيات[٢]، وطرق الاستدلال[٣]، وإثارة روح الاكتشاف[٤] ما لابتكار وهو ما يطلق عيه فى المعاصرة بالثورة العلمية .

obeikandl.com

(١) كما فى قوله تعالى: (شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذى أوحينا إليك) (سورة الشورى. آية رقم ١٣) وقوله سبحانه: (قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين) (سورة الأنعام: آية رقم ١٦٢ وغير ذلك من آيات الحلال والحرام، والفرائض والوصايا، والجهاد والسلم ١٦٢

(٢) كقولة تعالى: (وتصريف الرياح والسحاب المسخرين بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون) سوره البقرة: آية رقم ١٦٤

(٣) كقولة تعالى: (ألم يروا إلى الطير مسخرات فى جو السماء مايمسكهن إلا الله إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون) سورة النحل : آية رقم ٧٩ وقولة سبحانه: ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله فأنى يؤفكون) سورة العنكبوت : آية رقم ٦.

(٤) يشير إلى ذلك قوله تعالى: (ويخلق ما لا تعلمون) سورة النحل: آية رقم ٨، وقوله سبحانه: (وما أوتيتم من العلم إلا قليلا) سورة الإسراء : اية رقم ٨٥ .

ثانيا: مكانة العلم فى السنة

بين الرسول ﷺ مكانة العلم، وفضله على تقدم الأمم، وأنه الأداة الفعالة لالتقاء الثقافات، وتواصل الحضارات، ويظهر ذلك من خلال النماذج الآتية :-

١- حث الرسول ﷺ الإنسان على الترقى فى مدارج العلم المختلفة حتى يبلغ به التمام فيما قدر عليه، فقال فيما رواه أبو هريرة فى الصحيحين "**من سلك طريقا يبتغى فيه علما سهل الله له به طريقا إلى الجنة**"(١) فربط ﷺ بين تطلع المسلم نحو بلوغ الجنة وبين رقية فى العلم، مما يثير فى النفس الإنسانية الطموح نحو الزيادة فيه . أخذا من قولَه تعالى: ﴿ **وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا** ﴾(٢) والزيـــادة فى العلم تفتـــح أبواب التقدم فيه تطويره.

٢- وازن الرسول ﷺ بين مجلس العلم وبين مجلس العبادة فانحاز إلى مجلس العلم باعتباره أهم محور فى رسالته ﷺ .

روى عبد الله بن عمرو أن رسول الله ﷺ " مر بمجلسين فى مسجده، أحد المجلسين يدعون الله، ويرغبون إليه(٣) والآخر يتعلمون الفقه، ويعلمونه، فقال : كلا المجلسين على خير، وأحدهما أفضل من صاحبه، أما هؤلاء فيتعلمون الفقه ويعلمون الجاهل فهؤلاء أفضل، وإنما بعثت معلما، ثم جلس فيهم"(٤) . فقوله ﷺ "إنما بعثت معلما" تشريف للعلم والمعلمين والمتعلمين، مما يدل على أن رسالة الإسلام إنما جاءت لتخرج الناس من الجهل إلى العلم وإن علماءها مكلفون بمحو أمية الجاهل .

---

(١) شرح السنة، ج١ ص٢٧٣، ط .المكتب الإسلامى، سنن أبى داود مع عون المعبود، ج ١٠، ص ٧٥، طبعة دار الكتاب العربى .

(٢) سورة طه : آية رقم ١١٤

(٣) أى يتضرعون إليه بالعبادة

(٤) شرح السنة للبغوى، ج١، ص ٢٧٤، ٢٧٥

٣- من منطلق عالمية الإسلام، وأن رسالته للناس كافة أخذا من قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا ﴾[١] دعا الرسول ﷺ إلى نشر العلم، إرسالا وسبيل واستقبالا من المحلية إلى العالمية وبالعكس، باعتباره أداة لربط الحضارات وسبيل للتعارف إعمالا لقوله تعالى: ﴿ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ﴾[٢] ولذلك فتدعيما للتواصل العلمى بين الحضارات حث الرسول – ﷺ – على نشر العلم والحقائق العلمية ونقل الثقافة الإسلامية فى الوقت الذى لم يمنع استقبالهما من الآخرين، سواء كانت وسيلة النشر أو النقل سماعا أو خطاً تقليدية أو معاصرة بل أنه ﷺ أمر بأخذ العلم من الغير. ففى رواية أبى داود ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ: " تسمعون[٣] ويسمع منكم، ويسمع[٤] ممن يسمع منكم[٥].

قال العلامة أبو الطيب أبادى: الحديث ورد فى خبر بمعنى الأمر والمعنى أي لتسمعوا الحديث، وتبلغوه عنى ليسمعه من بعدى منكم، ويسمع الغير من الذي سمع منكم هلم جرا[٦]

وفى هذا إشارة لحركية العلم، وعالميته فى المنهج الإسلامي، لأنه بالنشر يحصل التبليغ مما يعنى إظهار العلم على المستوى المحلى والمستوى العالمي. وكون الرسول ﷺ أمر بالسماع من الغير للاستفادة : دل على جواز أخذ العلم النافع من الغير .

---

(١) سورة سبأ : آية رقم ٢٨

(٢) سورة الحجرات . آية رقم رقم ١٣

(٣) بالبناء للمجهول، والمعنى بها الجيل الثالث فى تلقى العلم، وهو مكلف بنشره على نطاق واسع لتعم الفائدة، وتتاح الفرصه لتبليب المعلومة على كل الوجوه مما يؤدى إلى تطوير العلم جيلا بعد جيل، وهكذا .

(٤) سنن أبى داود مع المعبود، الجزء١٠، الصفحة ٩٤

(٥) سنن أبى داود مع عون المعبود، الجزء ١٠، الصفحة ٩٤.

(٦) سنن الترمذى، الجزء ٥، الصفحة ٣٠

وفى سنن الترمذى عن أبى سعيد الخدرى قال : أن رسول الله ﷺ حدثنا فقال : "أنه سيأتيكم قوم من الآفاق يتفقهون، "فاستوصوا بهم خيرا "[١] فقوله ﷺ " من الآفاق " دليل على أن أمة الإسلام مكلفة باستقبال الوفود من أقطار الأرض لتنقل إليهم مالم يعلموه عن الفكر الإسلامي. أما قولَه "يتفقهون" فإنه يدل على انتقاء العلم ونقله إليهم بفقه جيد، وأن الفقه فى العلم مطلق، لا يختص بعلم دون علم، وقولَه ﷺ : "صوا فاستوصوا بهم خيرا" إشارة إلى الترحيب بالوفود وسعة الصدر لاستقبالهم مما يدل على أن التواصل الثقافى أمر محمود فى الإسلام مادام فى إطار الارتقاء بالقيم الإنسانية، ويفتح المجال لمحاكاة العلم المطلق خدمة للبشرية .

٤- حث الرسول – ﷺ – أمته أن تسعى فى طلب العلم، وتنقب عنه فى أى اتجاه حتى تحصل عليه بصرف النظر عن المصدر مراعية أن تكون المعلومة هى الأساس فى نقلها عن الغير، بمعنى أن تكون مفيدة مشتملة على الحكمة، وتجلب النفع للأمة .

ففى حديث ابن ماجة، عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول ﷺ " الكلمة الحكمة[٢] ضالة[٣] المؤمن حيثما وجدها فهو أحق بها[٤] .

فأشار الحديث إلى أن المراد بكلمة الحكمة، أى قضايا العلم الصادقة المفيدة التى يجب على المؤمن البحث عنها والسعى فى طلبها كأنها ضالته المنشودة فهو أحق بها، لأنه هو المخاطب فى القرآن الكريم بالانتفاع بمسخرات الكون من كل وجه، ومن أى اتجاه . أخذا من قولَه تعالى : ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى

(١) سنن الترمذى، الجزء ٥ ٣٠

(٢) أى ذات الحكم والمنافع المشتملة عليه

(٣) أى مطلوبة له بأشد ما يتصور فى الطلب، سنن ابن ماجة، الجزء ٢، صفحة ١٣٩٥ .

(٤) سنن ابن ماجه، الجزء ٢، الصفحة ١٣٩٥

ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾[1] فالمهم أن يضع نصب عينية مدى النفع الذى يعود عليه من المعلومة بأن ينظر إلى القول لا إلى القائل . لأن العلم فى المنهج الإسلامى لا يرتبط بوطن، لا يتعلق بشخص دون آخر . لقوله تعالى : ﴿ كُلًّا نُّمِدُّ هَـٰٓؤُلَآءِ وَهَـٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴾[2]

(١) سورة الأعراف : آية رقم ٣٢
(٢) سورة الإسراء آية رقم ٢٠

obeikandl.com

فضل العلماء فى ميزان الإسلام

عنق الإسلام العلم، وأنزله نزلا مباركا، فإنه لم يهمل الطاقة التى فجرت ينابيع العلم، وارتقت به لصالح البشرية وهو الإنسان، فقد بوأه الإسلام مكانا متميزا فاشتق له وصفا يناسب مكانته فسماه عالما . لبلوغه مرتبة لم يسبقه فيها غيره وحفظ له هذه المكانة من خلال آيات القرآن الكريم والسنة الشريفة .

ففى القرآن الكريم أعلن الله عن مرتبة العلماء ليميزهم بعلمهم، فى أكثر من موضع

الموضع الأول : ذكرهم فى المرتبة الأولى فى آيتين :

الآية الأولى : قوله تعالى: ﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۘ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ﴾[1] فقد مدح الله الراسخين فى العلم وجعلهم فى المرتبة الأولى فى الإيمان، لأنهم علموا بالدلائل القطعية، والآيات الكونية أن الله تعالى وحده هو العالم بالمعلومات التى لا نهاية لها، وعلموا أنه لا يتكلم إلا بالحق، فآمنوا بعلمهم هذا، أن القرآن كله من عند الله، وفوضوا تعين المراد بالمشتبهات منه إلى علم الله . فاستحقوا أن يذكرهم الله بالرسوخ فى العلم، لتمكنهم، فيه دون شبهة[2]، فرفعهم فى المرتبة الأولى لعلمهم الثابت الذى لا يدخله زيغ، وجزمهم بصحة القرآن . وفى هذا إشارة إلى مكانة العلماء المدققين، الذين يبذلون الجهد فى البحث العلمى لبلوغ تمامه.

---

(١) سورة آل عمران : آية رقم ٧

(٢) انظر تفسير الرازى، ج٤، ص٩٦، ٩٧ .

الآية الثانية : قولَه تعالى ﴿ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ ﴾[١] نزل الله ﷻ بهذه الآية العالم بكتب الرسالات وبعلم القرآن الكريم منزلة عالية حيث جعل شهادته حجة فى إثبات نبوة الرسول ﷺ[٢] .

فكان هو صاحب المرتبة الأولى فى حجية شهادته من الخلق بعد شهادة الخالق ﷻ. مما يعد رفعاً لمكانة العلماء فى كل العلوم، ما دام علمهم يترتب عليه إثبات الحقائق.

الموضع الثانى : ذكرهم الله فى المرتبة الثانية فى قولَه تعالى : ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ﴾[٣] ففى الآية أشهد الله سبحانه نفسه ثم أشهد خيار خلقه فبدأ بالملائكة ثم ثنى بالعلماء، ليضعهم فى المرتبة الثانية بعد الملائكة فى الشهادة على أجل مشهود عليه، وهو توحيد الله عزز وجل، وهذا فضل العلماء من البشر لا يدانيه فضل، حيث قرن الله شهادته فى هذا الموضوع بشهادته ﷻ، فكفاهم بذلك فخراً.

الموضع الثالث : نص القرآن صراحة على رفع درجات العلماء فقال تعالى: ﴿ فَٱنشُزُوا۟ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ﴾[٤] ذلك أن العلماء ببحوثهم، يكشفون للخلق أسرار الكون، وإعجاز الخالق، فى الآفاق وفى الأنفس، فيظهرون مقاصد الشرع فى مصالح الخلق، فاستحقوا أن يرفع الله درجاتهم . كما رفع درجات أهل الإيمان الذين تفردوا بالرسوخ

---

(١) سورة الرعد : آية رقم ٧

(٢) الرازى فى التفسير، ج٩، ص٢٧٠ .

(٣) سورة آل عمران : آية رقم ١٨

(٤) سورة المجادلة : آية رقم ١١

فى حقائق الدين حتى وصلوا درجة الوجل عند ذكر الله تعالى، والزيادة فى الإيمان بتلاوة القرآن الكريم فسلموا أمرهم كله لله. فكلا الفريقين، علا بالدين والشريعة فى المعاش والمعاد، فرفعهم الله فوق الناس درجات.

الموضع الرابع : نبه القرآن الكريم إلى أن العلماء هم أقدر الناس على نفع البشرية بعلمهم، وأنهم معقد الأمل للخروج بالناس من ظلمات الجهل ومستنقع التخلف إلى ضياء العلم، وإشراقة المستقبل. قال تعالى : ﴿ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾(١). وقال جل ذكره: ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾(٢). وقال سبحانه : ﴿ بَلْ هُوَ ءَايَـٰتٌۢ بَيِّنَـٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ﴾(٣) فأهل الذكر هم أهل العلم الذين آتاهم الله من فضله فألهمهم العلم بقوة إدراكهم واجتهادهم، فصاروا مرجعاً للعلوم كل حسب ما أوتى من سعة أفق وخبرة فى مجال من مجالات العلم المتنوعة سواء كان علماً دينياً أو دنيوياً نظرياً أو بحثياً.

الموضع الخامس : أخبر الله ﷻ أن العلماء، هم أقدر الناس على معرفة أسرار الكون، لينطلقوا منها بفطرتهم السوية، إلى معرفة الخالق جل وعلا. كما أنهم أقدر الناس على فهم الأشباه والنظائر، والأوامر والنواهى، واستيعاب الأمثلة التى ضربها الله ﷻ للدلالة على كمال قدرته وتدبيره فى الكون.

فمن الأولى قولَه تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَـٰٓؤُاْ ﴾(٤). ومن

(١) سورة النحل : آية رقم ٤٣
(٢) سورة الزمر : آية رقم ٩
(٣) سورة العنكبوت : آية رقم ٤٩
(٤) سورة فاطر : آية رقم ٢٨

الثانية قولَه سبحانه : ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴾[١] . فأشارت الآية إلى أن العلم الدقيق، إنما يحتاج إلى من يدرك أسراره.

قال الرازى : العلم الحدسى[٢] يعلمه العاقل. والعلم الفكرى الدقيق التأنى يعلمه العالم لأن العاقل إذا عرض عليه أمر أدركه كما هو بكهنه لكون المدرك. بالفتح – ظاهراً وكون المدرك – بالكسر – عاقلاً. أما الأمر الدقيق، فيحتاج إلى سبق علم فلابد لَه من عالم، ثم إنه قد يكون دقيقاً فى غاية الدقة، فلا يدركه بتمامه ولا يعقله على الوجه الصحيح إلا العالم[٣].

أما فى السنة : كما رفع الرسول – ﷺ – شأن العلم كذلك رفع شأن العلماء نقتطف منها.

١– روى أبو داود عن أبى الدرداء قال : سمعت النبى – ﷺ – "إن الملائكة لتضع أجنحتها رضا لطالب العلم، وإن العالم ليستغفر لَه من فى السموات والأرض، والحيتان فى جوف الماء، وإن فضل العالم على العابد، كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب، وإن العلماء ورثة الأنبياء، وأن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً، إنما ورثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظ وافر"[٤].

بين الرسول ﷺ فى هذا الحديث فضل العالم، ومقام العلماء، فقد أخبر أن الله أحاطهم برعايته، حتى أن الملائكة تتواضع أمام العالم توقيراً لعلمه بل قد تعينه فتسير لَه بإذن من الله، السكينة وصفاء الذهن حتى يبلغ ما قصد إليه فى طلب العلم، وزاد الله العلماء فضلاً فقيض لهم الملأ فى السموات

---

(١) سورة العنكبوت : آية رقم ٤٣

(٢) الحدسى مصدر حدس، وهو فى الأصل الظن المؤكد، كما تأتى حدس بمعنى أسرع، يقال حدس فى السير : أسرع، والمراد أن العلم الظنى، أو الظاهر السريع يكفيه العاقل .

(٣) الرازى فى التفسير بتصرف يسر، الجزء١٢، صفحة ٣٩٩.

(٤) سنن أبى داود مع عون المعبود، الجزء١٠، صفحة ٧٣، ٧٤.

والأرض والحيتان فى البحر بأن ألهمهم الدعاء لهم والاستغفار، لأنهم بعلمهم جلبوا المنافع والمصالح، وبينوا الحلال والحرام، فأرشدوا إلى ما يحل وما يحرم فى التعامل مع البيئة ومع أنواع الحيوان، فإذا كان العلماء مشغولين بالعلم، فالملأ فى السموات والأرض والبحر، مشغولون بالاستغفار لهم. ثم رفع اله مقامهم فجعلهم ورثة الأنبياء. ولما كانت رتبة النبوة لا رتبة فوقها فإنه لا شرف فوق شرف الوراثة لتلك الرتبة فمن أخذها بحقها فقد فاز بنصيب وافر منها(١). وروى ابن عبد البر من حديث أبى الدرداء، أن رسول الله ﷺ قال : "يوزن يوم القيامة مداد العلماء بدم الشهداء"(٢).

ذلك أن الشهداء إذا كانوا قد دافعوا عن الدين ليمكنوا لَه، فإن العلماء بعلمهم أحيوا الدين فى النفوس جيلاً بعد جيل ونشروا العلم لتحقيق مقاصد الشرع فى مصالح الخلق، فسار العلم سلاحاً ضرورياً لدوام الدين إلى يوم الدين.

روى أبو نعيم عن ابن عباس رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال : "أقرب الناس من درجة النبوة، أهل العلم والجهاد، أما أهل العلم فدلوا الناس، على ما جاءت به الرسل"(٣).

(١) عون المعبود، الجزء ١٠، صفحة ٧٣، ٧٤، إحياء علوم الدين، الجزء ١، صفحة ٢٧، شرح السنة، الجزء١ ، صفحة ٢٧٧، ٢٧٨.

(٢) أورده الغزالى فى الأحياء، ونوه الحافظ العراقى بضعف سنده، إحياء علوم الدين، الجزء١، صفحة ٢٨.

(٣) إحياء علوم الدين، الجزء١، صفحة ٢٨.